تل جنديرس ووادي عفرين الغربي

ديترش زورنهاجن

تعريب: هالة مصطفى

مقدمة:

لعب سهل أنطاكية دائماً دوراً هاماً في ربط الطرق التجارية بين حلب والعالم الإيجي الشرقي. ومع ذلك، بقيت العلاقات التجارية والثقافية في الجزء الشرقي والغربي من حلب القديمة غامضة، لعدم كفاية الدلائل الأثرية والكتابية في هذه المنطقة.

وإذا أخذنا هذه الناحية بعين الاعتبار، فإنه يبدو أن وادي عفرين الغربي وموقعه الهام وتل جنديرس (المدينة القديمة المسماة جنداروس)، مناطق مناسبة جداً لايجاد تفسير بعض هذه الأمور على الأقل. يغطي هذا التل مساحة ٤٠٠×٥٠٠م² وارتفاعه ٢٠م. وحتى الآن تشير الفخاريات واللقى الأخرى إلى استيطان للمنطقة منذ العصر الحلفي وحتى القرن السادس بعد الميلاد.

تولت البعثة الألمانية ـ السورية هنا التنقيب بين عامي ١٩٩٣ ـ ١٩٩٦، فكشفت مساحة ٢٦٥٠م²، وتعاقبت سويات بناء تتدرج من أوائل الألف الثانية إلى بداية الفترة البيزنطية (القرن السادس بعد الميلاد). تعود مراحل استيطان المنطقة السابقة للعصر البيزنطي الأول، إلى العصر الروماني المتأخر، والعصر الهلينستي المتأخر والعصور الآشورية، والعصور الحتية والآرامية المتأخرة. تحتوي أولى السويات التي اكتشفت حتى الآن على بقايا معبدين متراكبين وقصر من العصر البرونزي الأوسط I/ II.

بالإضافة إلى العلاقات التجارية والروابط الثقافية المتعددة الأوجه بين حلب وآسية الغربية القديمة كانت الصلات المتبادلة مع شرقي العالم الإيجي ذات أهمية خاصة. حيث لعب سهل أنطاكية، العمق حالياً، دوراً هاماً في الطرق التجارية عبر جبال الأمانوس التي تنحدر إلى المرافئ الكيليكية.

ومن جهة أخرى، فإن السهل كان معبراً لطرق التجارة الداخلية القديمة وراء الجبال المؤدية إلى الطريق الساحلية التي كانت تصل مصر وفلسطين مع الأناضول منذ أواخر الألف الرابع ق.م.

في حين أن التبادل الحضاري والتجاري لمسافات بعيدة بين الشمال والجنوب، بخاصة خلال الألف الثالث والثاني ق.م، أصبح مفهوماً أكثر خلال العشرين سنة الأخيرة بالاعتماد على الدلائل الأثرية والمكتوبة المستمدة من إبلا، فإن العلاقات الثقافية والتجارية بين الشرق والغرب لازالت غامضة. وتلقي النصوص المسمارية من تل عطشانة ـ آلالاخ الضوء فقط على مملكة موكيش في سهل أنطاكية في الألف الثاني ق.م فقط، وكذلك حال الأرشيفات الملكية لعاصمة الحثيين خاتوشا في الأناضول وتلك المستمدة من أوغاريت.

في أوائل الألف الأولى ق.م، قبل ظهور العصر الهلينستي بوقت طويل، لاشيء يلقي الضوء على الوضع السياسي داخل سهل العمق والمناطق المجاورة التي كان

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

يحكمها أنئذ ملوك دولة تدعى (أونكي أو باتن)، سوى حوليات الملوك الآشوريين.

إن أكثف التحريات الآثارية، حتى هذا التاريخ، هي تلك التي قام بها معهد شيكاغو الشرقي في ثلاثينيات هذا القرن. ولسوء الحظ فقد وثقت الفخاريات واللقى الصغيرة التي تعود إلى سويات ماقبل الألف الثاني ق.م في ثلاثة تلال فقط، بينما بقيت الحضارة المادية للمنطقة منذ بداية الألف الثاني ق.م وحتى العصرين البيزنطي والروماني المتأخر مجهولة عملياً. من جهة أخرى، فإن النتائج المسجلة من تل عطشانة ـ آلالاخ والتي من المحتمل أنها تغطي الألف الثاني ق.م على الأقل، تبدو ذات قيمة محدودة تبعاً للآراء العلمية السائدة حديثاً.

خلال العصور الرومانية والهلينستية، كانت مدينة أنطاكية ذات أهمية سياسية واقتصادية بارزة. وبقدر مايتعلق الأمر بحضارتها المادية، علينا ألا نجزم أن تصنيف ك. كيتون، المقبول على نطاق واسع، لواحدة من أهم المجموعات الفخارية من هذا الموقع ـ تيراسيجيلان الشرقي ـ قد توصل إليه من خلال المواد التي تم التنقيب عنها في ساماريا. نورد ذلك فقط من أجل إيضاح أنه حتى فيما يخص الفترات الكلاسيكية، فإن المعلومات الأساسية عن تطور الحضارة المادية في المنطقة بين حلب وساحل المتوسط لاتزال قليلة جداً.

عندما نأخذ كافة هذه الثغرات بعين الاعتبار، فإن وادي عفرين الغربي وموقعه الهام، تل جنديرس، يبدو مناسباً جداً لحل بعض الاشكالات التي ذكرت على الأقل.

يقع الوادي إلى شمال جبل سمعان مباشرة، على بعد ٥٠ كم تقريباً شمالي غرب حلب (الشكل ١). وبعد اجتيازه الممر الضيق قرب باسوطة إلى الجنوب من عين دارا يجري نهر عفرين قريباً جداً من المرتفعات الكلسية الضخمة باتجاه جنوبي غربي، بينما يرتفع الجانب الغربي عن واديه تدريجياً حتى ينتهي عند سفوح جبال الأكراد، مشكلاً أرضاً زراعية كافية لإعالة مجموعات استوطنت ثمانية تلال متوسطة الحجم، منتشرة في الوادي صعوداً حتى قرية عفرين الحديثة، ولإعالة الموقع الأكبر في المنطقة، تل جنديرس. على امتداد الضفة الشرقية من النهر، هناك سلسلة أخرى مؤلفة من ستة تلال، ثلاثة منها، برج عبد الله، جلمة، وبالوطة (تل جيجي) ذات حجم كبير إلى حد ما.

يقع تل جنديرس على بعد ٥ كم من الضفة الغربية للنهر، إلى الجنوب من القرية الجديدة جنديرس. ويغطي التل منطقة مساحتها حوالي ٤٠٠×٥٠٠م، أي ٢٠ هكتاراً، وبارتفاع حوالي ٢٠م، (الشكل٢). تشير الفخاريات واللقى الأخرى المكتشفة حتى الآن إلى استيطان المنطقة منذ العصر الحلفي وحتى القرن السادس بعد الميلاد. فالموقع مركز لسهل خصب متوسط الحجم ترويه ينابيع كافية تتدفق من المناطق المجاورة. وإذا أخذنا الوضع الجغرافي للموقع ضمن شبكة طرق التجارة البعيدة يتضح لنا أنه كان يتحكم بالقسم الواقع أقصى الغرب من طريق تجاري قديم، والذي كان ينطلق من أقصى شرق الفرات، ويعبر النهر كركميش، ويصل إلى وادي عفرين جنوبي موقع النبي هوري، سيروس القديمة. وهو من جهة أخرى يتيح الاتصال المباشر لطريق التجارة الهام الآنف الذكر، عبر سهل أنطاكية مع طريق التجارة الساحلي بين فلسطين والأناضول. من هنا، لابد أن تل جنديرس قد أفاد أيضاً كعقدة اتصال هامة بين حلب وطرق التجارة الدولية.

كان اسم الموقع خلال العصر الروماني ـ الهلينستي جينداروس. وتم وصفه بشكل مختصر من قبل الجغرافي القديم سترابون. ولابد أن نضع بحسباننا مطابقة الموقع مع كينالوا، عاصمة مملكة أونكي / باتن الحثية المحدثة، في الألف الأول ق.م، بهذا الخصوص تقدم حوليات آشور ناصر بعل الثاني لمحة هامة حوله. ففي عام ٨٧٦ ق.م سار الجيش الآشوري من كركميش إلى عزازوم، قرية إعزاز الحالية، حيث وصل الجيش وعبر نهر عفرين خلال يوم واحد وقضى الليل على الضفة الغربية، وبعد مسير يوم آخر وصل إلى كينالوا.

وبما أن اعزاز على بعد ٢٥ كم من النهر، فإن المسافة بين معسكر الجيش الآشوري وعاصمة باتينا (كينالوا) مماثلة تقريباً، وأنه لايوجد أي موقع آخر في منطقة عفرين تنطبق عليه هذه المواصفات الجغرافية والتاريخية باستثناء تل جنديرس، فلا شك أنه مدينة كينالوا القديمة.

ومن المحتمل أن هذا الموقع كان في الألف الثاني ق.م تابعاً لمملكة موكيش التي بقي اسمها منذ ذلك التاريخ غير معروف.

بين عامي ١٩٩٣ـ ١٩٩٦، بدأت تنقيبات البعثة السورية الألمانية باشتراك الأستاذ محمد قدور (المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ دمشق)، د. أ. سليمان (المتحف

الوطني ـ حلب) وكاتب المقال (جامعة كونستانس) وذلك في ثلاثة مواضع من التل . وتم كشف مساحة ٢١٥٠م٢ من المنطقة I التي تقع على القمة الشمالية الشرقية . بالمقارنة مع كمية ونوعية اللقى الصغيرة القليلة الشأن تبدو الشواهد المعمارية والستراتغرافية هامة جداً . فلأول مرة، بعد تنقيبات البعثة الأمريكية في سهل أنطاكية منذ ٦٠ سنة خلت، تم اكتشاف سويات بناء متعاقبة تمتد من منتصف الألف الثاني ق.م إلى أوائل العصر البيزنطي (القرن السادس بعد الميلاد) . وأصبح التأريخ ممكناً بالاعتماد على اللقى الفخارية وأيضاً النقود من العصر الروماني المتأخر والعصر البيزنطي المبكر . وربما تشير بعض اللقى المتفرقة من فخار العصر الإسلامي الأوسط إلى استيطان هذه المنطقة خلال هذه الفترة . على كل حال لاتوجد بقايا معمارية من هذه الفترة، وآخر النشاطات المعمارية في هذا الموقع تعود إلى عشرينات وثلاثينيات هذا القرن، أثناء تواجد المراكز العسكرية أو الجيش الفرنسي على القمة الشمالية الشرقية للتل . وكل ماتبقى من هذه الفترة هو الأساسات الحجرية لإحدى الغرف، والساحة الصغيرة التي تحتوي على حطام الأسلاك المحيطة، وصفائح قصدير قاسية وزر من بزة عسكرية فرنسية .

كما بقيت خمس سويات عمرانية أساسية، من أوائل الفترة البيزنطية .

تتألف السويتان (١و٢) من بيوت خاصة صغيرة . وتحتوي السويتان ٣و٤ على أساسات جدران مجمع معماري ضخم تآكل جزؤه الشمالي الآن، ويبدو أنه كان مشيداً حول فناء واسع لايقل عن ٤٥٠م٢ . ولم يتم التوصل إلى الحدود الجنوبية لهذا المجمع حتى الآن . وتقدم اللقى الفخارية وسرج الزيت والنقود (الشكل٤) تأريخاً للطبقات البيزنطية خلال القرن السادس بعد الميلاد .

تتألف الأرض تحت سويات البناء الأربعة هذه من ردميات جلبت من منطقة بعيدة عن التل . وتحتوي على كسر فخارية كبيرة، وكسر زجاجية وسرج زيت (الشكل ٥ـ٦) تعود بتاريخها إلى أواخر العصر الهلينستي (حوالي ١٠٠ ق.م) . وتم اثبات هذا التاريخ بواسطة القليل من النقود (الشكل ٧) والصور الفخارية الناتئة التي تُمثل اله الخمر (ديونيزوس) (الشكل ٨) .

تغطي الردميات منحدراً قديماً يمتد بالاتجاه الجنوبي . وقد ظهرت فيه أقدم سويات البناء البيزنطي المعروفة حتى الآن مع حفر عميقة لطرح الفضلات تعود لنفس الفترة، وبقايا قليلة من الجدران التي تعود إلى أواخر العصر الروماني المتأخر، تم تحديد تاريخها بالاستناد إلى نقود الامبراطورية الرومانية (٢٦٠ ـ ٣٣٠ ب.م) المستمدة من نفس المكان (الشكل ٩) .

يعود تاريخ مراحل الاستيطان السابقة إلى العصر الآشوري الحديث والحثي / الآرامي المتأخر . وتتألف كلاهما من مبانٍ سكنية محفوظة بحالة سيئة، وحفر لطرح الفضلات أقيمت على التوالي في موقع داخل السفح القديم . بينما أسفرت المرحلة الأبكر عن وفرة عن الفخاريات المزخرفة من ضمنها الهيلادي المتأخر IIIC والمواد المحلية التي قلدتها (الشكل ١٠) . أما مرحلة التطور الأخيرة فقد تميزت بزيادة القصعات المصقولة الحمراء، وكسر قليلة من مستوردات العصر الهندسي المتأخر (الشكل١١) . وتبدو كافة المواد متشابهة من عام ١١٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م حيث تم رصد نشاطات قليلة فقط .

تكشف هذه الحالة عن تباينٍ شاسع لدى مقارنتها بالشاهد المعماري تحت سطح المنحدر، حيث اكتشفت بقايا آبدتين بارزتين متراكبتين يعود تاريخهما للعصر البرونزي الوسيط (الشكل ١٢ و١٣)، وحتى الآن تم كشف بقعة متجانسة مساحتها ٨٥٠م٢ تحت بقايا المبنى المنخفض . وعلى بعد ٢٠ متراً باتجاه الغرب تم اقتفاء أثر الزاوية الشمالية الغربية للمبنى المنخفض الذي تمتد واجهته الشمالية باتجاه الشرق إلى ماوراء الحدود الفعلية للمنطقة المنقبة . وبذلك لايبقى مجال للشك بأن طول محوره الشرقي ـ الغربي يزيد على ٤٢م، وبما أننا لم نتوصل بعد إلى طرفي محوره الجنوبي، الذي تفصله عن المحور السابق مسافة ٣٠ متراً، فلا بد أن المبنى المنخفض كان ذات يوم يغطي مساحة تزيد على ١٢٦٠م٢ ، وقد أعيد استخدام جدرانه وأرضياته من جديد أثناء تشييد المبنى الذي توضع فوقه .

شيّد جدارا المبنى العلوي الخارجيان، الشمالي والشرقي، فوق الآجر المحطم جزئياً من جدران المبنى السابق الذي يبلغ عرضها ٣,٥م .

بالإضافة إلى ذلك، فقد تم اتمام الجدار الشمالي للمبنى الأعلى بمحراب بارز يذكرنا بالمعابد الفلسطينية في العصر

البرونزي المتوسط والمتأخر (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) ، كالموجودة في حاصور على سبيل المثال (الشكل ١٤) .

وعلى امتداد الواجهة الشمالية توجد مصطبة آجرية شبيهة بالميدان تمتد ٤٠م باتجاه الغرب، والتي ربما تعود إلى هذا المجمع أيضاً، والجدار الخارجي الغربي للمبنى الأعلى لم يعد موجوداً، بينما تتكون حدوده الجنوبية من جدار قديم أعيد بناؤه باستخدام آجر إضافي كان متداعياً في جهة الجنوب، والذي كان مشيداً جزئياً فوق أرضية البناء المنخفض، المطلية بالكلس الأبيض. كانت هذه الجدران تحيط بغرفة واحدة ذات أرضية جصصت بالكلس تعود في الأصل إلى المبنى المنخفض وأعيد استخدامها إلى حدما مؤخراً. وفوق هذه الأرضية، تم اكتشاف كسر من الفخار تعود للعصر البرونزي المتوسط والمتأخر، جعلت إعادة تاريخ المبنى إلى منتصف الألف الثانية مرجحاً. وبأخذ كل الشواهد مجتمعة، نجد أن المبنى العلوي يغطي مساحة ٢٠٠م٢ فقط، بدون الجدران. وهذا أقل من ٢٠٪ من مساحة المبنى المنخفض. وإذا وضعنا في الحسبان النوعية الرديئة لتقنيات بنائه ومواده (آجر محطم أعيد استخدامه)، لبدا ممكناً أن فترة استثماره كانت فترة انحطاط حضاري وربما اقتصادي.

وبما أن الأنشطة الاستيطانية في فترة أواخر عصر البرونز تكاد تنعدم تقريباً في تل جنديرس، والفخاريات واللقى الصغيرة الأخرى نادرة، فمن المرجح أن التل كانت له أهمية قليلة، أو حتى أنه كان مهجوراً من نهاية العصر البرونزي المتوسط حتى بدايات العصر الحديدي المبكر.

يعود تاريخ المبنى المنخفض إلى العصر البرونزي الأوسط. ويحتوي غرفتين كبيرتين ذات أرضيات كلسية لم يعاد بناؤها أو استخدامهما.

تتألف جهته الشمالية من جدار آجري طيني يحتوي على واجهة خارجية ذات دعائم تم انشاؤها فوق أساسات حجرية ضخمة. وفي الجزء الجنوبي الغربي من البناء، تم اكتشاف أساس لعمود على أرضية كلسية صلبة ملساء (الشكل١٥). وهذا العمود مصنوع من حجر البازلت، يبلغ ارتفاعه ٧,٠ متر، بينما قطره ١,٦ متر. ومن المحتمل أن يكون جزءاً من بوابة أو مدخل. وأهم ماتم اكتشافه أنبوبين من البازلت للمجاري متقني الصنعة، طول كل منهما ٢,٥ متر، يمران ضمن الجدار الخارجي الشمالي، وألغي استخدامهما عندما شيّد المبنى الأعلى (الشكل١٦) . تدل اتقان صنعتهما على أنهما كانا من تجهيزات معبد (أحواض للخمر) معاد استخدامهما .

وبالرغم من هذه الملاحظات، فإن وظيفة المبنى المنخفض والأعلى، أهي معبد أو قصر؟ - لازالت مجهولة. ومازال الموقع بحاجة لمزيد من التنقيب في المنطقة II على بعد ١٠٠ متراً من المنطقة I، قام الدكتور أ. سليمان باقتفاء أثر بقايا المبنى الثالث الضخم الذي ترجح كافة الاحتمالات أنه قصر وذلك تحت سوية من الحفر العميقة الكبيرة والعديدة من العصر الهيلينستي مروراً بالعصر البيزنطي التي قوضت معظم السويات التي توضعت فوقها. تم تنقيب حوالي ٥٠٠م٢. وتم إرجاع الفخاريات التي ظهرت في هذا البناء الذي يتألف من السور الخارجي الكبير في الشرق، وفناء كبير وغرف مستطيلة طويلة ذات أرضيات كلسية، إلى أوائل العصر البرونزي الوسيط.

وعلى طول المنحدر الغربي الشديد الانحدار وقمته الشمالية الغربية لاتزال تشاهد أساسات سور دفاعي منيع يمتد ٣٢٥ متراً إلى الشمال و١٠٠ متراً إلى الشرق على سوية أخفض بسبعة أمتار من سوية أساسات المبنيين الضخمين في المنطقة I. ومن خلال السبرين المدرجين في المنطقة III، اللذين قدما فكرة عن تعاقب التوضعات من السويات البيزنطية في الأعلى إلى جدران العصر الحديدي المتينة في الأسفل، وأصبح واضحاً أن السور الأساسي للحصن الذي يبلغ عرضه على الأقل ثمانية أمتار، يعود إلى الألف الثاني ق.م. لذلك يبدو أن مستوطنة تل جنديرس كانت، خلال الألف الثاني على الأقل، مدينة حصينة ضخمة يتوجها، في جانبها الشمالي الشرقي جزء محصن (أكروبوليس)، فقدت في أواخر عصر البرونز الأخير أهميتها السابقة. إن استمرار التنقيب يمكن أن يبين ما إذا كان مركز إداري / أو ديني قد أنشئ في القطاع الشمالي الشرقي للتل، خلال الألف الأولى، أو قبل ذلك بقليل؛ الأمر الذي لابد من توقعه، في حال كانت مطابقة تل جنديرس بكينالوا العصر الحديدي صحيحة.